

# فجوة القراءة بين الغرب والعرب

ماوريتس بيرخر

ترجمة: التيجاني بولعوالي



© 2015

جميع الحقوق محفوظة  
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث

All rights reserved  
Mominoun Without Borders

## فجوة القراءة بين الغرب والعرب

تأليف: ماوريتس بيرخر\*

ترجمة: التيجاني بولعوالي

---

\* ماوريتس بيرخر (Maurits Berger) مستشرق هولندي، حامل درجة الدكتوراه تخصص السياسات العامة والشريعة، عمل لدى معهد Clingendael، والآن يعمل بروفيسوراً متخصصاً في الإسلام لدى جامعة لايدن، صدرت له مجموعة من الكتب، منها: الشيخ في الكاتدرائية، أوجه الشبه والاختلاف بين العالم العربي وأوروبا، الشريعة والإسلام بين القانون والسياسية، الإسلام برتقالة، الإسلام تحت جلدي.

تجاري مع الثقافة، لا سيما ثقافة القراءة في منطقة الشرق الأوسط، لا تنطبق على ما تقوله حول ذلك أرقام الإحصائيات. والأرقام في هذا الصدد ليست هيّنة، كما يطالعنا تقرير التنمية البشرية العربية لسنة 2003، إذ تمّ في سنة 1996 نشر ألفي كتاب أدبي فقط في مجموع الدول العربية التي يبلغ عددها 22 دولة، وإذا كانت مبيعات الكتاب تتعدى خمسة آلاف نسخة على مستوى العالم العربي الذي يقدر تعداده السكاني بـ 270 مليون نسمة، فإنه يعتبر أكثر الكتب مبيعاً.

أمّا بخصوص ترجمة الكتب الأجنبية والأدب الأجنبي، فإنّ الأمر كئيب ومحزن، إذ ورد في ذلك التقرير أنّ إجمالي الكتب المترجمة في العالم العربي أثناء القرون العشرة الأخيرة يعادل عدد الترجمات التي تنشر سنوياً في إسبانيا وحدها.

إنّه أمر يبعث على الصدمة والمأساوية والاستفزاز، فهل جميع هؤلاء العرب متخلفون ثقافياً؟ يكاد المرء يعتقد ذلك. وبعد، حسب تجربتي في الشرق الأوسط يبدو أنّ الجميع يتحدثون هناك كثيراً عن الثقافة، ليس الثقافة الرفيعة ذات الطابع الباطني، وإنما الثقافة الشعبية الشائعة. فالعرب سرعان ما يمتلكهم شعور البهجة عندما يتحدثون عن الأدب والشعر. وعندما كنت أعمل هناك صحافياً اتخذت شخصياً شعاراً لي مؤداه أنّه لمّا تبدأ الحديث هناك في السياسة فسوف ينتهي بك الأمر إلى أي موضوع آخر. وتبدأ الحديث في الثقافة، ثم سرعان ما توضع في محادثة عميقة حول السياسة.

يبدو أنّ الأمر يتعلق بمسألة الرؤية، فالغرب يتميز بثقافة الكتابة. وهذا يبدو واضحاً، غير أنّه من خلال المنظور العربي المعاصر فإنّها ظاهرة بارزة الملامح، ليس لأنّ حياتنا اليومية تستند إلى الوثائق، (اسأل جميع المهاجرين الذين يلجؤون إلى تزوير وثائق الهوية لإثبات وجودهم)، وليس لأننا نفضّل التواصل عبر الكتابة (ليس فقط البريد الرقمي والمذكرات الداخلية، بل مختلف إشارات المنع والإعلانات ولوحات المرور)، وإنما لأننا نقرأ كذلك بما فيه الكفاية (البريد اليومي، والأدب، والجرائد، والصفحة الممتعة في القطر، والكتاب الجيد).

نحن نقرأ بعض الشيء، أمّا العرب فلا يقرؤون، هكذا فإننا سرعان ما نستنتج أنّ حال الثقافة في العالم العربي سيئ. إنّ الإجابة التي تقدمها طبيبة النساء رانيا (28 سنة) من القاهرة، تبدو جدّ واضحة لأغلب العرب، فهي تؤكد ذلك من خلال كلامها: "أنا لست مهتمة كثيراً بالثقافة، عندما أعود عند الساعة الثالثة من العمل، أنشغل كثيراً بعائلتي وأصدقائي". لكن ألا تذهبون معاً إلى عرض (قد يكون مسرحياً أو

غيره)؟ تضحك (رانيا) بخجل. وتقول: حسناً، لا، نجلس معاً، نرددش بعض الشيء، ونأكل، ونخرج. وعندما تسأل عن القراءة؟ تهزّ رأسها (بالنفي).

كلما سألت العرب بخصوص الثقافة أدركت أكثر أنّ كلمة "الثقافة" تسبب لهم الالتهاب. فالغربي يقصد بهذه الكلمة: الحفلات، والمهرجانات، والعروض، وقراءة كتاب، والاستماع إلى الموسيقى. أمّا في العالم العربي فهذا يفهم بصيغة متقطعة، ليس لأنّ العرب لا يحملون ثقافة، وإنما لأنّ ثقافتهم هُدّبت بشكل مختلف. إنهم يمتلكون ثقافة "جمعية"، لأنّ طابع التعامل الاجتماعي لديهم والحديث مع بعضهم بعضاً يفرضي بهم إلى إنتاج شكل فني معين. في مقابل ذلك، فإنّ أغلب الأشكال الفنية الغربية ذات طابع فردي، مثل: قراءة كتاب، تأمل لوحة فنية، الاستماع إلى الموسيقى. وغالباً ما يتمّ ذلك في صمت مقدّس، إذ الدردشة أثناء الحفل من المحرمات، كما أنّه يمنع إزعاج القراء، أمّا في المتاحف فلا يتمّ التواصل إلا بالهمس.

هذا هو أحد الأسباب التي تقف وراء مسألة قلة القراءة في العالم العربي، ما يجعل منها فعلاً معادياً للمجتمع، والمعادي للمجتمع لا يحمل معنى سيئاً يدعو إلى الشجب، فهو يعني حرفياً: لا اجتماعي. فالتمتع بالغوص في (قراءة) قصة، تعني وفق هذا التعريف أنّ القارئ ينقطع عن محيطه لينتظم في عالمه الخاص. في الغرب يعتبر فتح كتاب إشارة اجتماعية جدّ واضحة تعني: آسف، أنا لست هنا. وبعبارة أوضح، نحن نعتقد أنّ الذي يقرأ لا يرغب في أن يزعجه أحد. وبصرف النظر عن لحظة دخول المرحاض، ليس هناك شكل أفضل من الخصوصية الشخصية كالتّي توجد بين دفتي الكتاب.

كم هو الأمر مختلف إذن في العالم العربي! أستسلم أحياناً لقراءة كتاب حتى أتفادى سأم أوقات الانتظار الطويلة في محطات القطار أو الحافلات. فجأة يصل أناس يسألونك بكل لطف ما إذا كانت الأمور على أحسن ما يرام. الاستمرار في مواصلة القراءة بصلاية يجعلهم يسعون بثبات إلى كسر جدران عالم القراءة التي تنصبها حولهم. هذا ليس سوء نية منهم، بل يبعث على القلق في نفوسهم: أوه، هذا الفقير، يجلس هناك وحيداً دون استحقاق، هل كلّ شيء على ما يرام؟

في الحقيقة، عُرف العالم العربي دوماً بامتلاكه لتقليد ثري فيما يخصّ رواة القصص (أي ما يدعى في المشرق الحكواتي، وفي المغرب الحلايقي)، حتى أنّ كلّ مقهى أو نادٍ كان يحتوي على راوٍ، ما يجلب الكثير من المستمعين، وهذا يعني زيادة في الربح. وغالباً ما كانت تُحكى ملحمة قديمة في شكل تسلسلي. إذ ظلّ المسرحي اللبناني بول مطر ينظم لقاءات لرواة القصص في مسرحه الصغير بمدينة بيروت، ويذكر أنّه سمع في الستينات في جنوب لبنان راوياً عجوزاً يحكي ملحمة البطل العربي عنتر. وكان يتمّ

هناك "تقسيم المقهى إلى مؤيدين ومعارضين للبطل. ويعمل فن الخطابة على منح الفرصة بالتناوب للفريقين قصد التعبير عن فرحتهم".

وقد تمّ اليوم استبدال ذلك التقليد بالتلفزيون، لكن يحدث اليوم الأمر نفسه هنا (أي في الغرب)، حيث المسلسلات التي تتمتع بشعبية كبيرة عادة ما تكون ذات جودة عالية. وهذا ما ينطبق على القصة وموهبة التمثيل، غير أنه يظهر فيما يتصل بالمواضيع التي تتعرض للرقابة (حتى ما بين السطور) أنّ المرء يمارس السياسة من خلال الثقافة.

وهناك القليل ممّن حاول بثّ حياة جديدة في تقليد الحكيم القديم، كالمصرية شيرين الأنصاري التي قدّمت عروضها بنجاح، حيث تقوم بتوظيف سمات بسيطة - قطعة قماش، عصا، صندوق- وهي تحكي قصص ألف ليلة وليلة، التي قوبلت بحماس شديد، لا سيما عندما تدخل في حي شعبي، حيث يتفاعل الجمهور معها بشكل مكثف: "لا! شيء مرعب، تلك المرأة الفقيرة!" "يا له من محتال!".

المصريون البسطاء الذين يأتون للمشاهدة يسمعون بأفواه فاغرة، أمّا الأغنياء فلا يعاملون دائماً عروضها بالطريقة نفسها، تقول شيرين: إنّ "منهجي البسيط لا يعني عندهم شيئاً". "لماذا بأقدام عارية؟" يتساءلون. "لماذا عدم استعمال المؤثرات الضوئية والمضخمات الصوتية؟" تهزّ شيرين رأسها. "مشكلتهم الكبيرة أنّ الصورة التي أقدمها للأجانب هي أننا نحن - المصريون - لسنا عصريين".

من اللافت للنظر أنّ العرب الذين يُسألون عن ثقافتهم، سوف لا يشيرون مطلقاً إلى الحكيم أو الشعر، في الوقت الذي يعتبر هذان المكونان جوهر الثقافة العربية. والسبب الذي يقف وراء ذلك هو أنّ الثقافة لديهم تفسر دوماً من خلال المعنى الغربي لهذه الكلمة، أي باعتبارها أمراً سامياً وعالياً، ومحاطة بالاحترام المناسب. وهذا ما لم يعد يحدث اليوم مع الشعر والروايات، التي ينبغي أن نتقاسمها مع الآخرين، ويجب أن ننقلهما ونرسلهما، سواء في المنزل للعائلة أم أثناء نزهة ما مع الأصدقاء. في جو من الضحك والتعليق، عبر النكات والضوضاء وفي تسجيلات المطربة أم كلثوم التي غنت قصائد يقدر عمرها بأكثر من خمسة عشر ألف سنة، تسمع كيف يتفاعل الجمهور بصوت عال مع بيت شعري جميل، أو مع تهيدة في صوت المغنية عندما تتغنى بقلب البطل المكسر.

أعرف النزر القليل من العرب الذين يقرؤون، بل وكذلك القلة القليلة ممن يكتبون، لكن لم ألتق بعدُ بالعربي الذي لا يحفظ عشرات القصائد والأغاني عن ظهر قلب، أو الذي لم ينظم نفسه مرّة قصيدة شعرية. الجميع سبق له مرّة أن نظم قصيدة غرامية، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، من الأحياء الفقيرة أم من

الطبقة الأرستقراطية الغنية، يعرفون القراءة أم لا يعرفونها، أميين أم غير ذلك. بل إنّ بعضهم يكتبونها، أمّا معظمهم فيلقونها في حضرة الأصدقاء، وغالباً ما يؤدونها على إيقاع الطبل، ويخرجونها في نسخة موسيقية.

هل يمكن اعتبار ذلك السبب الجوهرى في تراجع وظيفة الكتب ووسائل نقل المعرفة في العالم العربى؟ أعتقد ذلك. فأغلب الكتب تكلف الكثير، خصوصاً كتب التاريخ والفلسفة والعلوم. فهي ليست ذلك النوع من القصص الذي تضعه على المنضدة. إنها كتب لا تقرأها أنت، وإنما تعتبر بمثابة مواد الدراسة. ولعل تلك الأدبيات تعود إلى أعوام الستينات، عندما كان أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مثقفين مشهورين يدخلون بشدة في المقاهي، ويتجادبون الحديث عن هيجل وماركس وإنجلز.

هذا الأدب الاشتراكي تمّ استبداله الآن بالأدب الإسلامي. إذ أنّ العلماء المسلمين ينشرون أيّ شيء عن الحياة اليومية للمسلم المعاصر، غير أنّ أغلب تلك الكتب هي مجرد إعادة طبع لأمهات الكتب الدينية القديمة، فهي لا تحدد نوع القارئ بالنظر إلى طموحه الثقافي والفني، أو رغبته الترويحية، باستثناء كتاب الطفل، أخذاً بأنّ ظاهرة القراءة هذه النسبية الغربية في العالم العربى يمكن ردّها إلى أنّها وسيلة لنقل الإسلام وتاريخه عبر القصص التعليمي إلى الجيل الناشئ.

ليس لأنّ الكتاب كان ينبغي أن يكون خفيفاً (في تناول الجميع)، فحتى وقت قريب كان يسري ذلك على الأدب العربى المترجم، إذ كانت تترجم دوماً المؤلفات الضخمة: فولتير، بروسست، غوته، بالزك. فدون المزيد من الأدب السامى، ليس في تناول الأغلبية الوصول إلى عالم الأدب الأوروبى. وفي الوقت نفسه، اكتشفت سوق الترجمة العربية - ولو بشكل محدود للغاية - أدب أمريكا الجنوبية، فماركيز وأليند يحضران بشكل كبير لدى الشباب. يقول تلميذ في المرحلة الثانوية من مدينة دمشق أثناء المعرض السنوي للكتاب: "هذان على الأقل نعرفهما". "إنها قصص جميلة، وهذه الدرامات العائلية تبدو تماماً كالتي عندنا". إلا أنّه أعاد وضع كتاب فارغاس لوسا في الرف، لأنّ ثمن الكتاب خمسة يورو باهظ للغاية.

إنّ انكماش ثقافة القراءة في العالم العربى ليس فقط نتيجة للفهم المغاير للثقافة والأدب، فالكثير من العرب لا يستطيعون القراءة، ولا يحبّون القراءة. فلندع الأرقام تعبّر عن ذلك، إذ أنّ أكثر من ثلث الشباب العربى أميون (ربع الذكور، نصف الإناث). أمّا بالنسبة للذين يرغبون في القراءة، فيعانون من رقابة الحكومات على الكتب، وتشديد الرقابة تختلف من دولة إلى أخرى. أمّا بخصوص وصول الكتاب وتقريبه من الجمهور العربى العريض - العرب يتحدثون مختلف اللهجات لكنهم يقرؤون جميعاً لغة واحدة مجزأة - فتعترضه إشكالية التوزيع، حيث الناشر يحتاج إلى إذن اثنتين وعشرين هيئة رقابة، إذا هو أراد

توزيع كتابه مرّة واحدة في سوق الكتاب العربي برمّته. فماذا سوف يتبقى من ذلك الكتاب بعد أن يمرّ عليه اثنان وعشرون قلماً من أقلام الرقابة الحمراء؟ لا، إنه من الأفضل أن تخزن الروايات والقصائد في الذاكرة، حيث لا يصل أحد، ولا يكلف ذلك ثمناً باهظاً، بل إنّ ذلك يجعلك تتمتع أكثر.

**مصدر المقالة الأصلية باللغة الهولندية: VPRO Gids, nr. 41, 2004**

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun\_sm



الرباط - أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

[info@mominoun.com](mailto:info@mominoun.com)  
[www.mominoun.com](http://www.mominoun.com)